قراءات ومراجعات

قراءة تحليلية نقدية في كتاب
إشكالية التحيّز: رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد*

تحرير: عبد الوهاب المسيري**

أحمد مرزاق***

مقدمة:

إن الموقف العربي من المعرفة الغربية عامة، والمنهج خاصة، لم يخرج عن ثلاثة أشكال،[1] أكثرها انتشاراً الموقف الدّاعي إلى تملّك هذه المناهج واستيعابها لتطبيقها في المجال العربي الإسلامي.[2] لقد حاول هذا الموقف توظيف المعرفة الغربية عامة، والمناهج خاصة، كما هي، واكتفى بالدعوة إلى تملّكها.

---

* المسيري، عبد الوهاب. **إشكالية التحيّز: رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد**، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٣، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م.

** دكتوراه في الأدب الإنجليزي والأمريكي المقارن من جامعة رتجرز بالولايات المتحدة الأمريكية، عام ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، توفي -رحمه الله- عام ٢٠٠٨م.

*** دكتوراه في الأدب العربي الحديث. البريد الإلكتروني: merzaknajmi@maktoob.com

تم تسلّم القراءة بتاريخ ٢٠١١/١٢/١٢م، وقُبلت للنشر بتاريخ ٢٠١٢/١/٢١م.

[1] انظر تفصيل هذه المواقف الثلاثة في:

- مرزاق، أحمد. "مفهوم التحيز: دراسة في بعض تحيزات الأستاذ المسيري"، **مجلة إسلامية المعرفة**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، س١٤، ع٥٣، صيف ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص٦٣-٦٦ خاصة. وقد رأينا في هذه المراجعة أن نجعل المواقف ثلاثة بعدما كانت أربعة في الدراسة السابقة؛ إذ أدمجنا الموقف الثاني (الذي ادّعى التأسيس)، والموقف الرابع (الذي اعتقد بوجود فكرة التحيز) في موقف واحد، مع الإشارة إلى وجود بعض الفوارق داخل هذا التصنيف الجديد.

[2] يقول أحد ممثّلي هذا الاتجاه: "وأهم ما ندعو إليه هو الاستيعاب النظري لمبادئ البنائية قبل محاولة تطبيقها على الأدب العربي". للاستزادة، انظر:

- فضل، صلاح. **نظرية البنائية في النقد الأدبي**، بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، ط٣، ١٩٨٥م، ص١٨.

وقد دعا الموقف الثاني إلى "التركيب"، وهذه الدعوة سمة ميّزت مجموعة من الكتابات العربية، وأخذت أسماء شتّى، منها: "التركيب"، و"التوفيق"، ويمكن التذكير بأن دعوى "التركيب" ترجع إلى الخمسينيات، وقد عبّرت عن نفسها في مجال الدراسات الأدبية بمصطلح "المنهج المتكامل" عند سيد قطب، كما تجلّت عند شوقي ضيف بشكل بارز.

أمّا الموقف الثالث فدعا أصحابه إلى فكرة "التأسيس"؛[٣] وهي دعوى تشمل جميع فروع المعرفة؛ فمن دعوى تأسيس فلسفة عربية أو إسلامية، إلى دعوى تأسيس علوم اجتماعية (علم اجتماع، وعلم نفس، وعلم تاريخ) عربية أو إسلامية، إلى دعوى تأسيس علم جمال عربي أو إسلامي.[٤]

وهذا الموقف يمكن تصنيفه بشكل عام إلى صنفين؛ الأول منهما دعا نظرياً إلى التأسيس (خاصة في مجال الدراسات الأدبية) منطلقاً، حسب ما يصرّح به، من رؤية تنفي تطبيق مناهج جاهزة، أو نقلها من المجالات التي استخدمت فيها إلى مجال جديد،[٥]

[٣] صدر للباحث لؤي صافي تأليف بعنوان "تأسيس المعرفة" (The Foundation of Knowledge) نشرته الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، عام ١٩٩٦م. وقد راجعه أبو يعرب المرزوقي في إسلامية المعرفة:

– المرزوقي، أبو يعرب. "رؤية مغايرة، مداخلة مع الدكتور لؤي صافي"، **مجلة إسلامية المعرفة**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، س٤، ع١٤، شتاء ١٩٩٨م، ص١٣٩– ١٦٦. ويمكن مراجعة تعليق فتحي ملكاوي على ما جاء في مداخلة المرزوقي ضمن الدراسة الشاملة التي عقدها لمناقشة المعترضين على فكرة "إسلامية المعرفة". انظر:

– ملكاوي، فتحي. "حوارات إسلامية المعرفة: عرض وتحليل"، **مجلة إسلامية المعرفة**، العدد ٢٥، صيف ٢٠٠١م.

[٤] نجد هذه الدعوة حاضرة في مجموعة من الدراسات العربية، ويمكن التمثيل على هذا الأمر بالدراسات الآتية:

– الدسوقي، عبد العزيز. "نحو علم جمال عربي"، **مجلة عالم الفكر**، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مج٩، ع٢، ١٩٧٨م.

– الصديق، حسين. **فلسفة الجمال ومسائل الفن عند أبي حيان التوحيدي**، سوريا: دار القلم العربي– دار الرفاعي، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م. يقول هذا الباحث: "وبعد فإنني لأرجو من وراء نشر هذا الكتاب التنبيه على حاجتنا الماسة إلى علم جمال عربي معاصر نابع من هويتنا وثقافتنا، يكون لنا مرجعاً نحتكم إليه، ونموذجاً نحتذي به في علاقاتنا بالواقع وبخاصة إبداعنا الفني"، ص٧.

– جهاد، هلال محمد. "جماليات القرآن: مشروع فلسفة جمال عربية – إسلامية معاصرة"، **مؤتمر التحيّز الثاني**، القاهرة، ١٠–١٣ فبراير ٢٠٠٧م.

[٥] أبو ديب، كمال. **الرؤى المقنعة: نحو منهج بنيوي في دراسة الشعر الجاهلي**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م، ص٦.

ومثبتاً لنفسه المساهمة الشخصية[٦] في التأسيس، لكنه عملياً يستقي مصادره ومرجعياته المتعددة والمتباينة من موارد منهجية غربية مختلفة ومتضاربة.[٧]

أمّا الثاني، وهو الذي يهمّ في هذه المراجعة النقدية، فقد اعتقد بوجود فكرة "التحيّز" في المعرفة عامة، والمعرفة الغربية خاصة؛ لهذا حاول نقد المناهج الغربية من جهة، والأشكال السابقة من جهة أخرى.

وقد تبلْور هذا التيار أكثر، واتّضحت معالمه في بداية النصف الثاني من القرن العشرين، فبرز على مستوى المؤسسات العلمية المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن،[٨] وعلى مستوى الأفراد كل من حسن حنفي في كتابه "مقدمة في علم الاستغراب"،[٩] وعبد الله إبراهيم في "المركزية الغربية إشكالية التكون والتمركز حول الذات"،[١٠] وغريغوار مورشو في "مقدمات الاستتباع: الشرق موجود بغيره لا بذاته"،[١١] والقائمة طويلة.[١٢]

---

[٦] أبو ديب، كمال. **في الشعرية**، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٧م، ص٧.

[٧] تتحدد هذه المصادر في التحليل البنيوي للأسطورة عند الأنثروبولوجي البنيوي الفرنسي (Levé Strauss)، والتحليل المورفولوجي للحكاية عند الروسي (Vladimir Propp)، و"المنهج الاجتماعي الماركسي" عند الماركسي (Lucien Goldmann)، ومناهج تحليل الأدب في إطار التحليل اللساني والسيميائي عند (Jakobson) والبنيويين الفرنسيين. للاستزادة، انظر:

– إبراهيم، عبد الله. **الثقافة العربية والمرجعيات المستعارة – تداخل الأنساق والمفاهيم ورهانات العولمة**، الدار البيضاء–بيروت: المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٩م، ص٦٤.

[٨] تأسس المعهد العالمي للفكر الإسلامي عام ١٩٨١م. ولمعرفة أسس مشروع إسلامية المعرفة وأهدافه، انظر:

– الفاروقي، إسماعيل. **أسلمة المعرفة: المبادئ العامة وخطة العمل**، ترجمة: عبد الوارث سعيد، الكويت: دار البحوث العلمية، ط١، ١٩٨٤م.

[٩] صدر الكتاب في بيروت عن المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، عام ١٩٩٢م.

[١٠] صدر الكتاب في الدار البيضاء/بيروت عن المركز الثقافي العربي، ط١، عام ١٩٩٧م.

[١١] صدر الكتاب في فيرجينيا عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ضمن سلسلة إسلامية المعرفة (١٨)، ط١، عام ١٩٩٦م، (١٥٧ صفحةً).

[١٢] أعدّ الباحث ببليوغرافيا مختصرة تضم المؤلفات التي عالجت موضوع التحيّز؛ سواء أكانت معالجة جزئية أم شاملة، وسواء استعملت مصطلح التحيّز، أو مصطلحات أخرى قريبة منه، التأصيل، والخصوصية، والأسلمة، والإسلامية، وإسلام، والتأسيس، وغيرها. وقد ألحقها بالكتاب الأكاديمي الجامعي الذي حرّره في موضوع التحيّز بتكليف من المرحوم عبد الوهاب المسيري، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي.

والمفكّر العربي الذي اهتم بإشكالية التحيّز اهتماماً ملحوظاً غطّى أكثر من ربع قرن تقريباً من مسيرته العلمية، هو الباحث المصري المرحوم عبد الوهاب المسيري.

وهذا لا يعني أن هذا الباحث لم يُسبق إلى هذا الموضوع من قبل؛ إذ نجد أن فكرة التحيّز قد نوقشت من طرف كثيرين،[١٣] وكان الفكر الماركسي العربي أكثر وعياً بهذه القضية، إلّا أن الجديد عند المسيري هو دراسة القضية على نحو منهجي وشامل حتى غدت إشكالية التحيّز علامة على المسيري. تقول الباحثة فريال جبوري غزول: "لا يمكن أن يذكر التحيّز ولا يذكر –حاضراً أو غائباً– عبد الوهاب المسيري، لأن جزءاً من مشروعه هو دراسة التحيز."[١٤]

فالمرحوم المسيري يمثّل ما سميته "مرحلة الوعي المنهجي الشامل"، والتنظير لظاهرة التحيّز، مع ظهور المصطلح وتداوله في الأوساط العلمية.[١٥]

أولاً: في تاريخ الإشكالية وميلاد "فقه التحيّز"

بدأت فكرة التحيّز أثناء كتابة المسيري "موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية"، وهو يشير إلى أن الإحساس بهذه الإشكالية بدأ يتعاظم عنده في أواخر السبعينيات، كما اكتشف أن كثيراً من الباحثين في مصر[١٦] يشاركونه هذا الإحساس،[١٧] وحين انتقل إلى

[١٣] انظر إشارة المسيري إلى بعض الباحثين العرب الذين كانوا يشاركونه الفكرة منذ أواخر السبعينيات في:
– المسيري، **إشكالية التحيّز: رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد، المقدمة فقه التحيّز**، مرجع سابق، ص١٨.

[١٤] جاء هذا القول ضمن تعقيب الباحثة على الأوراق المقدّمة في إحدى جلسات مؤتمر إشكالية التحيّز الثاني (الجلسة التاسعة الموازية: اللغة والأدب) الذي عقد تحت عنوان: "حوار الحضارات والمسارات المتنوعة للمعرفة"، بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية في جامعة القاهرة، بتاريخ ١٠– ١٣ فبراير ٢٠٠٧م.

[١٥] يمكن تصنيف اجتهادات الباحثين العرب الذين يعترفون بالخلفية المعرفية (أو الأيديولوجية، أو الاجتماعية، أو الدينية) للعلم، وللمنهج، وللمصطلح، إلى المراحل الآتية:
أ. مرحلة "الملامسات الأولى للموضوع"، ب. مرحلة "الوعي الجزئي" التي اقتصر فيها الباحثون على مجال تخصصهم، ج. مرحلة "الوعي المنهجي الشامل"، والتنظير لظاهرة التحيّز، وظهور مصطلح التحيّز. ومن الأعلام الذين تعرّضوا لهذا الموضوع، كلّ حسب تخصصه، نذكر: غريغوار منصور مورشو، ومحمد أمزيان، وعبد العزيز حمودة، ومحمد شكري عياد، وأحمد عطية أحمد، وحامد عمار، وسيد أحمد عثمان، وطه عبد الرحمٰن، وسعد عبد الرحمٰن البازعي، وغيرهم.

[١٦] يذكر من الباحثين: عادل حسين، طارق البشري، جلال أمين، نبيل مرقص، عبد الحليم إبراهيم، ممدوح فهمي، حامد الموصلي، كريمة كريم، هدى حجازي، جودة عبد الخالق.

جامعة الملك سعود بالرياض، وجد كذلك الانشغال الفكري نفسه، فشكّل مع بعض الباحثين[١٨] في كلية الآداب حلقة لدراسة إشكالية التحيّز، ثم حين عاد إلى القاهرة كوّن مجموعة بحث ثالثة انشغلت بالقضية نفسها.[١٩]

وبعد اجتماعات عديدة، وجد المسيري وهذه النخبة من الباحثين أن الوقت قد حان لتجاوز مرحلة النقاش، وإصدار كتاب عن الموضوع يتكوّن من دراسات مختلفة في حقول معرفية، يقوم بكتابتها عدد من العلماء العرب، كلّ في حقل تخصصه، فكتب المسيري دعوة للإسهام في الكتاب،[٢٠] وتوالت الدراسات ابتداء من عام ١٩٨٧م، وتجمّع لديه عدد من الدراسات، ثم قرّر أن يعقد مؤتمراً عن الموضوع.

ثانياً: مؤتمر إشكالية التحيّز والمؤلّف العمدة

عُقد هذا المؤتمر في القاهرة بتاريخ ١٥-١٧ شعبان ١٤١٢هـ، الموافق ١٩-٢١ شباط/فبراير ١٩٩٢م، وذلك تحت إشراف المعهد العالمي للفكر الإسلامي ونقابة المهندسين بمصر.

وقد توصّل المسيري بعد المؤتمر بأبحاث جديدة، فقرّر أن ينشر كل الأبحاث، وقد صدرت هذه الأبحاث أوّل مرة عام ١٩٩٣م في كتاب من جزأين ضخمين عن نقابة المهندسين بالقاهرة،[٢١] ثم عام ١٩٩٥م عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ونقابة

[١٧] المسيري، **إشكالية التحيّز، مرجع سابق**، المقدمة، ص١٨.

[١٨] يذكر منهم: سعد عبد الرحمٰن البازعي، نذير العظمة، محمد شكري عياد، عزت خطاب، محمود الذوادي، سعد الصويان.

[١٩] يذكر منهم: أسامة القفاش، أحمد عبد الله، هبة عزت رؤوف، مصطفى السعيد، إبراهيم البيومي غانم، هشام جعفر، حسام السيد، عمرو الحمزاوي، حازم سالم.

[٢٠] انظر ورقة العمل: إشكالية التحيز في المنهج: دعوة لفتح باب الاجتهاد، ضمن: المسيري، **إشكالية التحيّز**، مرجع سابق، المقدمة، ص١٩-٢٦.

[٢١] يشير المسيري في أحد كتبه إلى أن الطبعة الأولى المصرية من كتاب "إشكالية التحيّز" صدرت عام ١٩٩٢م. انظر: - المسيري، عبد الوهاب. **رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمار**، القاهرة: دار الشروق، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص١١.

لا أعرف عن هذه الطبعة إلا ما أشار إليه المسيري في موقعه الالكتروني، من أن هذه الطبعة مصرية محدودة. لمزيد من التفصيل، انظر:

المهندسين بعنوان: "إشكالية التحيز"، دون عبارة "رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد"، وهذه الطبعة هي التي يُشار إليها بوصفها الطبعة الأولى.[٢٢]

ثم أعيد نشر الكتاب في طبعتين؛ طبعة ثانية عام ١٤١٧هـ-١٩٩٦م (منقحة ومزيدة)، وطبعة ثالثة عام ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، وذلك في سبعة أجزاء، حملت عنوان "إشكالية التحيّز: رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد".

وقد ضمّ الكتاب:[٢٣]

* في طبعته الأولى تقديماً في صفحة واحدة، وفي طبعته الثالثة تصديراً في عشر صفحات، وكلاهما بقلم طه جابر العلواني.

* مقدّمة مفصّلة وطويلة بقلم المحرّر المرحوم عبد الوهاب المسيري، وقد ضمّت تسعاً وخمسين صفحة في طبعة الكتاب الأولى،[٢٤] ومائةً وثلاث صفحات في طبعته الثالثة.[٢٥]

نشر المرحوم المسيري أجزاء كبيرة من هذه المقدّمة في عددين من مجلة الإنسان،[٢٦] ثم أعاد نشر بعض الأجزاء في مجلة إسلامية المعرفة،[٢٧] وأخيراً أعاد نشر هذه المقدّمة في كتابه "العالم من منظور غربي".

* سبعَ مقدّمات متفاوتة الصفحات للمحاور السبعة.

* سبعةَ محاور تضمّنت مجموع الدراسات، وقد توزّعت على الشكل الآتي:

– **القائمة التفسيرية بأعمال الدكتور عبد الوهاب المسيري التي صدرت (أو ستصدر) باللغتين: العربية والإنجليزية**، في موقع المسيري الإلكتروني.

[٢٢] يشير المسيري إلى أن الطبعة الأولى الصادرة عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي ونقابة المهندسين كانت عام ١٩٩٦م، في حين أن التاريخ الموجود على الطبعة الأولى التي بحوزتي هو ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، وهو التاريخ نفسه الذي نجده على الطبعة الثالثة في إشارتها إلى الطبعات السابقة.

[٢٣] سأعتمد في هذا العرض على الطبعة الثالثة، مع بعض المقارنة بالطبعة الأولى.

[٢٤] من ص٩-٦٧.

[٢٥] من ص١٧-١١٩.

[٢٦] المسيري، عبد الوهاب. "التحيّز للنموذج المعرفي الغربي الحديث (ج ١، ج ٢)"، **مجلة الإنسان**، مجلة تصدر دوريًّا، باريس: دار آمان للصحافة والنشر، س٤، ع١٣-١٤، ١٩٩٥م.

[٢٧] المسيري، عبد الوهاب. "الفكر الغربي: مشروع رؤية نقدية"، **مجلة إسلامية المعرفة**، مجلة فصلية يصدرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن، س٢، ع٥، ١٩٩٦م.

*** المحور الأول: مشكلة المصطلح**

علي جمعة: كلمة في التحيز، محمد عمارة: الخصوصية الحضارية للمصطلحات، أحمد صدقي الدجاني: التحيز في المصطلح، عبد الوهاب المسيري: هاتان تفاحتان حمراوان: دراسة في التحيز وعلاقة الدال بالمدلول، عبده الراجحي: النظريات اللغوية المعاصرة وموقفها من العربية، محمد أكرم سعد الدين: اعتداء الفكر العربي الحديث على ذاته اللغوية: نحو رؤية لغوية معاصرة وفتح باب الاجتهاد.

*** المحور الثاني: الأدب والنقد**

سعد عبد الرحمن البازعي: ما وراء المنهج: تحيزات النقد الأدبي الغربي، فريال جبوري غزول: إشكالية مقاومة التحيز في أدب العالم الثالث.

*** المحور الثالث: الفن والعمارة**

نذير العظمة: إشكالية الصورة بين الفقه والفن، عمر النجدي: البعد الخامس: ظاهرة كونية قابلة للقياس، بيتر واتكنز: عنف الصورة: نظرات في لغة السينما الراهنة، محمد مهيب: العمارة الداخلية: الجذور التاريخية وتأكيد الانتماء، سهير حجازي: دراسة التحيز في التصميم المعماري، راسم بدران: العمارة والتحيز، عبد الحليم إبراهيم عبد الحليم: مواجهة مع مفاهيم التحيز في الفراغ المعماري من الحوض المرصوص إلى ميدان الراجستان، محمد عبد الستار عثمان: نحو منهج إسلامي لدراسة المدينة الإسلامية.

*** المحور الرابع: العلوم الطبيعية**

محجوب عبيد طه: عقائد فلسفية خلف صياغة القوانين الطبيعية، أحمد فؤاد باشا: إشكالية التحيز في تاريخ العلم والتقنية، ممدوح عبد الحميد فهمي: الانحياز الحضاري الغربي في النماذج الرياضية العددية كمنهج للبحوث في العلوم الهندسية، أسامة القفاش وصالح شهابي: الذكاء الصناعي بين الآلي والإنساني، محمود الذوادي: محاولة استكشافية في طبيعة الذكاء البشري والذكاء الاصطناعي وذلك بمساعدة المنظور القرآني، أسامة القفاش وصالح شهابي: حكماء لا أطباء: عن التحيز في المفاهيم الطبية، محمد عماد

فضلي: العلوم الطبية والتحيز للنموذج الأوربي الغربي، حامد إبراهيم الموصلي: تأملات عن "التكنولوجيا" و"التنمية" من منظور حضاري.

*** المحور الخامس: العلوم الاجتماعية**

محمود الذوادي: ملامح التحيز والموضوعية في الفكر الاجتماعي الإنساني الغربي والخلدوني، نبيل مرقص: ممارسات البحث العلمي الاجتماعي بين الهندسة الاستعمارية القسرية والحوار الثقافي الخلاق، عادل حسين: التحيز في المدارس الاجتماعية الغربية: تراثنا هو المنطلق للتنمية، جلال عبد الله معوض: المادية الأمريكية وعلاقة المتغير الاقتصادي بالتطور السياسي، نصر محمد عارف: نظريات التنمية السياسية: نموذج للتحيز في العلوم السياسية، أسامة القفاش: قراءة في معجم التنمية لفولفجانج ساكس، طارق البشري: التحيز في كتابة التاريخ، نادية مصطفى: الدولة العثمانية: أبعاد التحيز في دراسات النظام الدولي وفي دراسات التاريخ الإسلامي، سيف الدين عبد الفتاح: مقدمات أساسية حول التحيز في التحليل السياسي: منظور معرفي وتطبيقي، هبة رؤوف عزت: الأسرة والدولة: الماضي الغربي أم المستقبل الإسلامي؟، هشام جعفر: ملامح التحيز في التعامل مع مفهوم الحاكمية، طه جابر العلواني: حول فكرة المواطنة في المجتمع الإسلامي.

*** المحور السادس: علم النفس والتعليم والاتصال الجماهيري**

قدري حنفي: قضية التحيز في علم النفس: ملامح من سيرة ذاتية، رفيق حبيب: العلوم الاجتماعية بين التحديث والتغريب: نموذج علم النفس، سعيد إسماعيل علي: إشكالية التحيز في التعليم، هدى عبد السميع حجازي: التحيز في المقررات الدراسية، هاني محي الدين عطية: التحيز في الأنظمة الغربية لتصنيف المكتبات، عبد الوهاب المسيري: الحقائق الصلبة والنموذج المعوج: دراسة في التحيز المعلوماتي، مجلة نيو إنترناشيونياليست (يونيو ١٩٩٢م): وراء الحقائق: الأرقام تطحن العالم، محمد شومان: الموضوعية والتحيز في قياسات الرأي العام، حسام الدين السيد: التحيز في الاتصال الجماهيري والخروج من الدائرة.

* المحور السابع: إدراك التحيّز في الفكر العربي الحديث

فؤاد السعيد: تحيزات غربية في قضايا نهضتنا: بحث مستخلص من أعمال الدكتور أنور عبد الملك، إبراهيم بيومي غانم: إشكالية التحيز في فكر أربعة مفكرين مصريين: د. جلال أمين – د. عبد الوهاب المسيري – أ. طارق البشري– د. سيد دسوقي، حسام الدين السيد: التحيز للتفسيرات المادية: بحث مستخلص من كتابات الدكتور عبد الوهاب المسيري، حسام الدين السيد: إدراك التحيز في المفاهيم الاقتصادية: بحث مستخلص من كتابات الدكتور جلال أمين، هبة رؤوف عزت: واقع نقل التكنولوجيا والتحيز ضد الذات: بحث مستخلص من كتابات الدكتور سيد دسوقي، نادية رفعت: عصر النهضة والتحيز في كتابة التاريخ: بحث مستخلص من كتابات الأستاذ منير شفيق، هبة رؤوف عزت: إشكالية التحيز في مناقشة قضايا الشريعة الإسلامية: بحث مستخلص من كتابات الأستاذ طارق البشري، هبة رؤوف عزت: التحيز في دراسات المرأة: بحث مستخلص من كتابات الدكتورة منى أبو الفضل.

ونظراً إلى ضخامة العمل وتعدّد الدراسات؛[٢٨] لا يمكن عرض كل ما ورد في هذا الكتاب، لهذا سنكتفي بتلخيص موجز لدراسات المرحوم المسيري.

كتب المسيري –كما سلف التنويه– مقدّمة العمل، وقد ضمّت تسعاً وخمسين صفحة في طبعة الكتاب الأولى، ومائةً وثلاث صفحات في طبعته الثالثة، نشر أجزاء كبيرة منها في عددين من مجلة الإنسان،[٢٩] ثم أعاد نشر بعض الأجزاء في مجلة إسلامية المعرفة،[٣٠] وأخيراً أعاد نشر هذه المقدّمة في كتابه "العالم من منظور غربي".

وقد ضمّن المسيري هذه المقدمة إشارة مقتضبة إلى تاريخ الإشكالية، ثم عرّف التحيّز لغةً واصطلاحاً، كما حدّد أنواعه، وأشكاله، وطرح مجموعة من آليات تجاوز التحيّز، واقترح في الأخير النموذج البديل.

---

[٢٨] بلغ عدد الدراسات (٥٣) ثلاثاً وخمسين دراسةً يضاف إليها التصدير والمقدمة، وسبعُ مقدّمات للمحاور السبعة.

[٢٩] المسيري، **التحيّز للنموذج المعرفي الغربي الحديث (ج ١، ج ٢)**، مرجع سابق.

[٣٠] المسيري، **الفكر الغربي: مشروع رؤية نقدية**، مرجع سابق.

وشارك المسيري كذلك في هذا العمل بدراستين؛ الأولى بعنوان: "هاتان تفاحتان حمراوان: دراسة في التحيز وعلاقة الدال بالمدلول" والثانية بعنوان: "الحقائق الصلبة والنموذج المعوج: دراسة في التحيز المعلوماتي".

رصد المسيري في الدراسة الأولى عدداً من أشكال التحيّز، منها: ١. ارتباط الدال بسياقه الحضاري الذي نشأ فيه، ومثّل بمصطلح الأسرة في السياقين: الغربي العلماني، والعربي الإسلامي، ٢. ارتباط المصطلح المستورد بوجهة نظر صاحبه، ومثال ذلك مصطلح "عصر النهضة"، و"عالمي" اللذان لا يعنيان في واقع الأمر سوى الغربي ونهضته، ٣. اعتبار اسم العلَم دالاً؛ فـ"المنظمة الصهيونية العالمية" تترجم بهذا الاسم وكأنها عالمية بالفعل، مع أن ٩٩ % من أعضائها في الغرب، و٨٠ % في الولايات المتحدة، ٤. عدم التفكير في المصطلح الغائب على الرغم من وجود المدلول؛ فالظاهرة (المدلول) التي لم يرصدها علماء الاجتماع والتاريخ الغربيّن تبقى غير مسماة مع أنها موجودة بالفعل؛ والمثال على ذلك مصطلح "رجل أوروبا المريض" الذي ينسى رجلاً آخر هو "رجل أوروبا النهم المفترس".

ولتجاوز هذا التحيّز، يدعو المسيري إلى الابتعاد عن الترجمة والنظر إلى الظاهرة مباشرة، ثم تسميتها ومحاولة التوليد من داخل القاموس العربي.

وفي الدراسة الثانية، يحلّل المسيري مصطلح "الهولوكوست"، فيبيّن سلسلة من التحيّزات المعرفية والتاريخية المرتبطة بهذا المصطلح؛ أولها: أن الإبادة النازية ليهود أوروبا ليست استثناء في السياق الغربي، بل هي نموذج كامن في هذا الحضارة، وثانيها: التلاعب بالمستوى التعميمي والتخصيصي؛ فاليهود لم يكونوا وحدهم الضحايا، ولا كلّ يهود العالم، بل وُجِد إلى جانبهم المسلمون، والسلاف، والغجر، وغيرهم.

ويوضّح المسيري آليات كشف مثل هذه التحيّزات في المصطلح، وأهمها إرجاع الحدث إلى سياقه الحضاري وتحليله وفهمه في إطاره، ودراسة المقولات الفرعية بوصفها جزءاً من نموذج معرفي كلّي. وعليه، تصبح "النازية" لحظة نماذجية عبّر فيها النموذج الغربي عن نفسه بدرجة عالية من التبلور، وليست انحرافاً عن هذا النموذج. كما تصبح مقولة "الصهيونية الفرعية" تعبيراً عن النموذج المعرفي الإمبريالي نفسه.

ثالثاً: إشكالية التحيّز: ملحوظات نقدية

سنحاول في ما يأتي تدوين بعض الملحوظات الشكلية على الكتاب في طبعته الثالثة؛ لأنها هي الأخيرة، ومن المفروض أن تتدارك الأخطاء التي وردت في الطبعة الأولى، ثم إبداء بعض الأفكار حول إشكالية التحيّز.

١. ملحوظات شكلية:

– باستثناء سنوات الطّبع الأولى (١٩٩٥م) والثانية (١٩٩٦م)، لم تُشِر الطبعة الثالثة أيّة إشارة إلى الطبعات السابقة، بل حُذِفت من هذه الطبعة ستّ دراسات دون أيّة إشارة إلى هذا الحذف.

– تضمّن المحور الخامس (العلوم الاجتماعية) اثني عشر بحثاً، لكنّ المحرّر لم يلخّص في مقدّمة المحور[٣١] سوى سبعة أبحاث (أبحاث كلّ من: محمود الذوادي، نبيل مرقص، عادل حسين، جلال عبد الله معوض، هبة رؤوف عزت، هشام جعفر، طه جابر العلواني)، وأهمل خمسة أبحاث (أبحاث كل من: نصر محمد عارف، أسامة القفاش، طارق البشري، نادية مصطفى، سيف الدين عبد الفتاح).

– يُثبت المحرّر في محتويات "محور إدراك التحيّز في الفكر العربي الحديث" هذا العنوان: "إشكالية التحيّز في فكر أربعة مفكرين مصريين: د. جلال أمين – د. عبد الوهاب المسيري – أ. طارق البشري– د. سيد دسوقي"، وهو العنوان نفسه الذي نجده في الطبعة الأولى (١٩٩٥).[٣٢] ولكنّنا نجد في مقدّمة المحور عنواناً مغايراً هو: "اتجاهات إدراك التحيّز في الفكر المصري الحديث: نموذج التحول من العَلمانية إلى الإسلام."[٣٣]

---

[٣١] انظر: محور العلوم الاجتماعية، ص٩–١٦.

[٣٢] بيومي، إبراهيم غانم. "إشكالية التحيّز في فكر أربعة مفكرين مصريين: د. جلال أمين – د. عبد الوهاب المسيري – أ. طارق البشري– د. سيد دسوقي"، ضمن: "**إشكالية التحيّز**"، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ونقابة المهندسين، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص٨٨٩–٨٩٩.

[٣٣] انظر: محور إدراك التحيّز في الفكر العربي الحديث، ص٩.

– في محور "علم النفس والتعليم والاتصال الجماهيري"، نجد بحثاً منشوراً في مجلة نيو إنترناشيونياليست (يونيو ١٩٩٢م)، عنوانه: "وراء الحقائق: الأرقام تطحن العالم" ولكن من غير تحديد لاسم المترجم، شأنه في ذلك شأن مقال بيتر واتكنز: "عنف الصورة: نظرات في لغة السينما الراهنة."[٣٤]

– نختم هذه الملحوظات الشكلية بملحوظة لغوية مرتبطة باستعمال فعل "تحيّز"؛ فمعلوم أن هذا الفعل يُستعمل متعدياً بحرف "إلى"، ولم يرد في كلام العرب متعدياً بحرف اللام، والآية الوحيدة التي ورد فيها تؤكد هذا الاستعمال: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (الأنفال: ١٦). ولكنّ مجموعة من الدراسات؛ سواء في هذا الكتاب الذي تجُرى مراجعته أو في مواطن أخرى، تستعمل "التحيّز لِ"، لهذا وجب التنبيه.

٢. إشكالية التحيّز: رؤية مغايرة

بعد المؤتمر الأول لإشكالية التحيّز وصدور أعماله، انتشر مصطلح التحيّز انتشاراً واسعاً في الأوساط الثقافية؛ فوضع له سعد البازعي وميجان الرويلي مدخلاً في الطبعات الجديدة من دليلهما الأدبي،[٣٥] وعُقِد المؤتمر الثاني عام ٢٠٠٧م، وقد شاركْتُ فيه، بتحرير أوراقه برفقة أخي عبد القادر مرزاق والمرحوم المسيري. كما صدر مؤخراً كتيّب عن المجلة العربية بالسعودية حول التحيّز في النقد العربي، وهو في أصله بحث مستلّ من رسالة دكتوراه أنجزها الباحث المغربي علي صديقي.[٣٦]

وحسب متابعتي لهذا الموضوع لم تظهر أيّ دراسة نقدية لمفهوم التحيّز، وقد سبق أن قلت في دراسة سابقة لي عن تحيّزات المسيري ما نصه: "بعد العودة من مؤتمر التحيّز الثاني، ولقائي المباشر بالباحث أبي يعرب المرزوقي، الذي يشكّل، بموازاة مع المرحوم

---

[٣٤] انظر: محور الفن والعمارة.

[٣٥] البازعي، سعد، والرويلي، ميجان. **دليل الناقد الأدبي**، الدار البيضاء–بيروت: المركز الثقافي العربي، ط٥، ٢٠٠٧م، ص١٠٢–١٠٧.

[٣٦] نوقشت يوم الأربعاء ٢٠١٠/٧/١٤م، في رحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة، في المملكة المغربية، وكان عنوانها: "إشكالية التحيّز في النقد الأدبي العربي المعاصر".

المسيري، إحدى المرجعيات المعرفية التي استفدت منها كثيراً في تكويني العلمي، بدَا لي أن الأمر يحتاج إلى وقفةٍ أطول، وإلى دراسة أوفى؛ فالمرزوقي كما هو معلوم له وجهة نظر مغايرة حول موضوع التحيّز قد عالجها بعمق فلسفي في موطنَيْن على الأقل[٣٧] هما: "إسلامية المعرفة: رؤية مغايرة، مداخلة مع الدكتور لؤي صافي"،[٣٨] و"بين التعين والتحيّز مقاصد المعرفة ومستويات الوجود".[٣٩]."[٤٠]

وقد سمحت لي الفرصة أن أتأمّل هذه الإشكالية وأدوّن عنها بعض الملحوظات، فبدا لي أنَّ إشكالية التحيّز إشكالية فرعية ارتبطت بوحدة العلوم، وبإشكالية المنهج في العلوم الإنسانية والاجتماعية، وقد عالجها بالأصالة جلّ الفلاسفة والعلماء الغربيين أمثال: كانت، وأوجست كونت، وكارل بوبر، ودلثاي، وغادامير، وغيرهم، معالجة مستفيضة، وبالتبعيّة مجموعة من الدارسين العرب، وذلك تحت مسميات كثيرة، منها: إشكالية عالمية أو محلية العلوم، وإشكالية خصوصية العلوم، وفكرة تأصيل العلوم، وأسلمة (إسلامية) العلوم.

كما بدا لي أن هذه الإشكالية يمكن معالجتها في إطار الفكر العربي الإسلامي القديم عند الغزالي، وابن تيمية، وابن خلدون تمثيلاً لا حصراً؛ لأن هؤلاء قدّموا إسهامات أعمق بكثير من بعض الأطروحات التي قدّمها المثقفون العرب المعاصرون بخصوص هذه الإشكالية؛ فأبو حامد الغزالي (٥٠٥ هـ) —مثلاً– أثناء تعداده أقسام علوم الفلسفة إلى رياضية، وطبيعية، وإلهية، وسياسية، وخلقية، يُثبت كلاماً مهماً بشأن قضية التحيّز؛ فعلم الرياضيات عنده (وقد اخترت التمثيل به؛ لأن القول بالتحيّز لم يقتصر على العلوم

---

[٣٧] ركّزت على المواطن الصريحة. أما غير الصريحة فمتضمَّنة في جلّ كتاباته.

[٣٨] **مجلة إسلامية المعرفة**، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، س٤، ع١٤، شتاء ١٩٩٨م، ص١٣٩-١٦٦. ويمكن مراجعة تعليق فتحي ملكاوي على ما جاء في مداخلة المرزوقي ضمن الدراسة الشاملة التي عقدها لمناقشة المعترضينَ على فكرة "إسلامية المعرفة".

[٣٩] دراسة شارك بها المرزوقي في مؤتمر التحيّز الثاني المنعقد في القاهرة بتاريخ ١٠ – ١٣/ ٢/ ٢٠٠٧م، وقد أعاد نشرها في كتابه:

– المرزوقي، أبو يعرب. **صوناً للفلسفة والدين**، دمشق: دار الفرقد، ط١، ٢٠٠٧م، ص٣١-٨٨.

[٤٠] مرزاق، **مفهوم التحيّز: دراسة في بعض تحيزات الأستاذ المسيري**، مرجع سابق، ص٩٦.

الاجتماعية فحسب، بل تعداها إلى ما يسمى بالعلوم الدقيقة)[٤١] "ليس يتعلّق فيه شيء بالأمور الدينية نفياً وإثباتاً، بل هي أمور برهانية لا سبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها ومعرفتها،"[٤٢] ثم يتابع "وليس في الشرع تعرّض لهذه العلوم بالنفي والإثبات، ولا في هذه العلوم تعرّض للأمور الدينية،"[٤٣] أمّا "الآفات" التي تتولّد عن هذا العلم،[٤٤] فهي أمور عارضة لا علاقة لها بطبيعة الرياضيات، حتى وإن رتّب عنها الغزالي حكماً يبدو "غريباً"؛ وذلك حينما ذهب إلى "زجر كل من يخوض في تلك العلوم."[٤٥]

والأمر نفسه نجده حاضراً عند ابن خلدون (٨٠٨هـ)؛ إذ عقد صاحب المقدمة فصلاً في أن العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري،[٤٦] وتكرّرت فكرة "العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري" في مواطن كثيرة من المقدّمة، مثل قوله: "أمّا أهل الأندلس فذهب رسم التعليم من بينهم وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران المسلمين،"[٤٧] و"أمّا أهل المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه، بل أسواقه نافقة وبحوره زاخرة لاتصال العمران الموفور واتصال السند فيه،"[٤٨] "فأهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة تعليم العلم بل وفي سائر الصنائع، حتى إنه ليظن كثير من رحّالة أهل المغرب إلى المشرق في طلب العلم أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب، وأنهم أشدُّ نباهة وأعظم كيساً بفطرتهم الأولى (...) ويعتقدون التفاوت بيننا وبينهم في حقيقة الإنسانية ويتشيعون لذلك (...) وليس كذلك (...) وإنما الذي فضل به أهلُ المشرق أهلَ المغرب، هو ما يحصل في النفوس من آثار الحضارة من العقل المزيد كما تقدم في الصنائع."[٤٩]

---

[٤١] انظر بعض أبحاث محور العلوم الطبيعية في كتاب: **"إشكالية التحيّز: رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد"**.

[٤٢] الغزالي، أبو حامد. **المنقذ من الضلال والمفصح بالأحوال**، تحقيق ودراسة: سميح دغيم، بيروت: دار الفكر اللبناني، ط١، ١٩٩٣م، ص٦٥.

[٤٣] المرجع السابق، ص٦٦.

[٤٤] المرجع السابق، ص٦٥-٦٦.

[٤٥] المرجع السابق، ص٦٦.

[٤٦] ابن خلدون، عبد الرحمن. **المقدمة**، تحقيق: علي عبد الواحد وافي، مصر: دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط٣، ج٣، ص١٠١٨.

[٤٧] المرجع السابق، ص١٠٢٢.

[٤٨] المرجع السابق، ص١٠٢٢.

[٤٩] المرجع السابق، ص١٠٢٢-١٠٢٣.

وفي فصل أصناف العلوم الواقعة في العمران على عهد ابن خلدون، يُثبت صاحب المقدّمة كلاماً بشأن قضية التحيّز شبيهاً برأي الغزالي؛ إذ يقول: "اعلم أن العلوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الأمصار تحصيلاً وتعليماً هي على صنفين: صنف طبيعي للإنسان يهتدي إليه بفكره؛ وصنف نقلي يأخذه عمن وضعه."[٥٠]

ويقول عن الصنف الأول ما نصه: "والأول هي العلوم الحكمية الفلسفية، وهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره، ويهتدي بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها وأنحاء براهينها ووجوه تعليمها، حتى يوقفه نظره وبحثه على الصواب من الخطأ فيها، من حيث هو إنسان ذو فكر."[٥١]

أمّا في ما يخصّ موقف ابن تيمية (٧٢٨ هـ) فنكتفي بالسؤال الآتي: هل كان نقد ابن تيمية للمنطق نقداً معرفياً خالصاً، أو نقداً تأسّس على اعتبار المنطق نتاجاً لثقافة يونانية مغايرة للثقافة العربية الإسلامية؟ وبعبارة أخرى؛ أكان هذا النقد صادراً عن مقولة التحيّز، أم عن اعتبارات معرفية لا علاقة لها بالتحيّز؟

خاتمة:

جاءت هذه المراجعة النقدية في سياق دراسة أُعدّها الآن عن فكر المرحوم المسيري، ستظهر -إن شاء الله- في عمل مشتَرك؛ وذلك بعد أن رأيت أن أغلب الدراسات التي أُنجِزت حول فكر هذا الرجل اتّسمت بمجموعة من الصفات، أُجمِلها في العناصر الآتية:

- عرْض نصوص المرحوم المسيري وتلخيص مضامينها، دون تحليل أو نقد؛ وذلك بإعادة كتابة كلامه بطرائق أخرى دون الإحالة عليه مطلقاً، أو بالإحالة على جزء يسير من كلامه.

[٥٠] المرجع السابق، ص١٠٢٥.
[٥١] المرجع السابق، ص١٠٢٦

– تبنّي الإطار العام الذي قدّمه المرحوم المسيري في كتبه، وكذلك مواقفه من الفكر الغربي، وهذا الأمر قد لامسته عن كثب عند مراجعتي بعضَ ما كُتِب عنه، أو أثناء قراءة بعض الدراسات المُنجزَة عنه.

– غياب القراءة التحليلية النقدية لمشروع المرحوم المسيري عن خارطة القراءات العربية المعاصرة؛ إذ لم نعثر على قراءة واحدة لفكر المسيري تنحو منحى الدراسات التي أُنجِزت حول فكر أركون، أو الجابري، أو العروي مثلاً، وإنما اقتصر الاحتفاء بأفكاره على مجموعة من الباحثين الشباب، ينتمي أغلبهم إلى أقسام الدراسات الإسلامية أو الدراسات الأدبية. أمّا تكوينهم الفكري والفلسفي في مجال الفكر الغربي عامة، وفي مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية خاصة، فيعتمد في الغالب وسيط الترجمة العربية، أو كتب المسيري نفسه.

– هجوم بعض الدعاة والوعّاظ على أفكار المرحوم المسيري، وعلى ما يتعلّق بمسألتي اليهودية والعلمانية وكتاب "بروتوكولات حكماء صهيون" خاصة.